اكتشافات حديثة في هليوبوليس

لحضرة الاب الكسيس مالون اليسوعي

لا يزال القوم يسعون احسن السعي في الحفر والتنقيب عن العاديات المصرية ولا تزال مباحثهم يتسع نطاقها يوماً فيوماً . واننا نرى كل سنة في فصل الشتاء العدد العديد من علماء فرنسة وانكلترة وايطالية واميركة وغيرها من الاقطار ياتون وادي النيل وملء صدورهم الهيام باكتشاف لم يُسبقوا اليه . فمنهم من باشروا الاشغال على نفقتهم الخاصة ومنهم من انتظموا في سلك لجان تقوم حكومتهم بمصاريفها . حتى الوطنيين ذاتهم قد يشغفون بحب الجد الناتج عن هذه الاعمال الخطيرة فيكرسون لها همهم وتعبهم . لذا راينا انهُ يحلو للمطالع ان ينظر معنا نظراً اجماعياً في ما أتم من الاعمال في هذه السنوات وما كان من الاكتشافات التي وُفق اليها الباحثون . نبدأ بمصر السفلى ثم نتبع ضفة النيل من كل محطة مهمة الى اخرى حتى اسوان فقيله

من اشهر مدن مصر واقدمها عهداً مدينة هليوبوليس . اما موكزها فهو عن مدينة القاهرة بعشرة كيلومترات شمالاً الى الشرق بقربة من قريتي المطرية وعين شمس الحديثتين في ذات الحل الذي قامت فيهِ عزبة الحصن وعزبة العرب . واليهِ تهديك مسلة فرعون المنتصبة ما بين حقول الذرى وكوم الرَدم المتراكبة في تلك الارجاء . فانك لا تكاد ترى في ذلك السهل المحيط بالمسلة سوى الاطلال المخبرة عن الابنية القديمة وحطم التماثيل والاعمدة والافاريز والحجر المحبب وقطع الرخام التي لم يترك لها الدهر هيئة تهد وقد يقع نظر الناظر فيها على اسم رعمسيس الثاني او رعمسيس الثالث . هذا كل ما بقي لنا من تلك المدينة الحافلة الغانية . وقد كانت تفاخر بهيكلها البديع ابهى الهياكل المصرية . وقد طبق المفصود ذكر ناديها الكهنوتي ومعاهدها العلمية حيث تخرج موسى كليم الله ومنها انبثت انوار المعارف والعلوم . فهي هذه الاخربة قد أتمت مؤخراً اعمال تنقيبية ذات شان قام بقسم منها افراد على نفقتهم الخاصة وبالقسم الاخر السنيور شياپاراتي (Schiaparetti) باسم الدولة الايطالية وعلى حسابها . وها نحن نذكر الان كلا منهما على حدته

١

لم يفت اهل البلاد انفسهم ما اودعته اراضيهم من العاديات الثمينة وكثيرًا ما بحثوا وحفروا فباعوا للاجانب ما كانوا يكتشفونه وكان معظم تلك الاكتشافات في مدافن الثور «مناوي» (Mnévis) على كيلومترين من هليوبوليس شمالًا. وكان من مزاعم قدماء المصريين الدينيَّة انَّ الشمس كانت تتجسد وتلتحف بجسم هذا الثور المقدس مناوي. وكان هيكل هليوبوليس قبلة المتعبدين لها واليه يتقاطرون من كل وجه لاكرامها وقد دعيت تلك المدينة مسكن «را» اعني الشمس ولذا تكاد لا ترى صفيحة من صفائح الحجر التي وجدوها في المدفن الا وقد نقش فيه صورة مناوي

ففي سنة ١٩٠١ لقي احدهم مدفنًا للثور المقدس فذهب به دون ان تطلع مصلحة العاديات على هذا المكتشف او تجد له بعدئذ اثرًا. وفي شهر نيسان من سنة ١٩٠٢ حدث انَّ رجلًا يونانيًا كان يعلل النفس بوجود كنز من الكنوز في بعض الاراضي شمالي هليوبوليس فاتى وتعاهد مع صاحب المكان على ان يرخص له بالحفر والتنقيب فيعطيه ثلث ما يتَّفق له استخراجهُ. فاجال يده في ذلك الحل بكل نشاط وما عتم ان وقع على قبر للثور المقدس من عهد رعمسيس الثالث. فلما شاهد اليوناني جدران القبر استولى عليه الهلع وخاف ان تعرف الحكومة المصرية باكتشافه فتقيم عليه الدعوى. فاسرع واخبر احد مستخدمي مصلحة العاديات احمد بك كمال بامر القبر فاتاعهُ احمد بك لتحف العاديات

ولهذا القبر شأن يذكر. وهو عبارة عن بناء قائم الزوايا مستطيل طولهُ ٧ امتار و ٨٠ سنتيمترًا وعرضهُ ٥ امتار في ٨٥ سنتيمترًا لهُ باب واحد عرضهُ متر و ٢٠ سنتيمترًا من جهة المدينة. وكان هذا الباب مسدودًا ببلاطة واحدة. اما حجارة الجدران فان معظمها كان قد اخذ من غرف هيكل هليوبوليس وكانت قد اصبحت خرابًا على عهد رعمسيس الثالث وبين تلك الحجارة يشاهد الناظر قطع الاعمدة وحطم افاريزها. وكانت الجدران من خارجها مليئة باللبن اما من داخلها فكانت مزينة بتصاوير ورسوم تمثل عقائدهم الدينية. وكان على واجهة البناء في اعلاه قرص الشمس مجنحًا وعلى قائمة الباب اليمنى صورة الاله «ساند» برأس لبد وجسد انسان وعلى القائمة اليسرى صورة الاله «انابيس» على هيئة ابن آوى جاثيًا. ومما يلذ العين من التصاوير التي

في الداخل صورة الثور مساوي حاملًا بين قرنيه قرص الشمس وجاثيًا على سرير في طرفيه رأس أسد وقد قامت على جانبيه من جهة الالهة ازيس ومن الاخرى الالهة نفتيس تكتنفانه باذرعها الممدودة عليه

وقد وُجد في هذا القبر اشياء كثيرة منها حجر ضريح مدوّر من اعلاه وستة آنية كانوبية (Canopes) اربعة من المرمر وثلاثة من حجر الجص وخنفساء من حجر الجص ايضًا واثنتان غيرها من حجر الصفاح وخابية من فخار مكسرة. اما مومية الثور فكانت في وسط القبر مهروسة والماء من فوقها . وكان بالقرب منها علائق من نحاس اصفر وهو الدليل على ان الجثة كانت في تابوس من خشب عاثت به ايدي المتلصصين منذ القدم

وقد وجدوا ايضًا بجانب القبر بعض اشياء غير التي ذكرناها منها خاتم وقطع صفائح حجرية منقوشة فاودع كل ذلك في متحف العاديات

٢

ان ملك ايطالية قد عهد من سنوات غير قليلة الى المسيو شيابارالي ان يتولّى اشغالًا تنقيبيّة عن العاديات في مصر . وسنذكر في ما يأتي من القول ان هذا العلامة الذي لهُ اليد الطولى في الآثار المصرية قد توفق الى اكتشافات مهمة في مصر العليا .

وقد باشر الاشغال في سهول هليوبوليس في اوائل سنة ١٩٠٤ ثم عاد اليها بعد عيد الفطير من السنة المذكورة حتى متوسط شهر تموز وسيعود اليها السنة المقبلة . وكان عدد الفعلة مائتين تقريبًا يشتغلون في ثلاث نقط مختلفة بالقرب من المسلّة وفي عزبة العرب شمالي هليوبوليس على ضفة الترعة التوفيقية واخيرًا في اقصى كوم الردم نحو الشرق عند بيوت المطرية

لا يسعنا الان ان نصف وصفًا كافيًا مدققًا تلك الاكتشافات لانهُ الى هذا العهد لم يُنشر عنها بالطبع شيء كما انهُ لا يليق بنا ان نسبق حضرة المكتشف الى تعريف نتائج سعيه وجده والكتابة عنها بالتفصيل . وعليه فاننا نكتفي بذكر الاهم منها

ان اعمال الحفر التي اجريت بالقرب من المسلّة قد وقعت على ذات المحل الذي كان الهيكل القديم قائمًا عليه وقد اوضحت رسمه بالتدقيق وهذا الرسم كان مجهولًا قبلها وبناء على ذلك قد تقرر ان الهيكل كان شرقي المسلّة

ولكن مما يؤسف له كل الاسف ان الاعمدة والتماثيل التي كان ذلك الهيكل البديع مزدانًا بها لم يبقَ منها شيء فانها كلها قد حُطمت او نُهبت او بيعت للقيام بنفقة المساكن الجديدة . كذا قل عن كل الابنية لا فقط في هليوبوليس بل في سائر المدن التي نشأ بالقرب منها مدن حديثة فان هذه بنيت بحجارة تلك . اذا لم يخرجوا من الارض سوى الكسر والحطام وكل ما وجدوه من تماثيل كبيرة او صغيرة وآنية خزفية وافاريز اعمدة كل ذلك كان من التلف على درجات متفاوتة

قد وجدوا ايضًا في باحة الهيكل رجلَ باز عظيمة جدًا يقتضي ان يكون عليه تمثال الباز ٧ امتار ليكون بينها وبينهُ المناسبة اللازمة . وهو اعظم تمثال باز شوهدت اثاره حتى الان

ومما يهمّ المؤرخ قطعة نُقش عليها اسم « بسامتيك » احد ملوك الدولة السادسة والعشرين . فانهُ من المعلوم ان الهيكل قديم العهد جدًا وقد جُدّد بناءه على مقام معبد قديم لمينمحات الاول (٢٢٠٠) اول ملوك الدولة الثانية عشرة

ثم ان ولده وخلفهُ « اوزيرتاسن » الاول نصب المسلّتين امام الهيكل احداهما باقية الى اليوم والاخرى قد سقطت في القرن الثاني عشر فنُقلت الى الاسكندريّة . وكثيرًا ما تشاهد عليهما اسم رعمسيس الثاني ورعمسيس الثالث وهذا يدل على ما كان لهذين الملكين من العناية في تزيين معبد الشمس واكرامه . على انَّ اسم بسامتيك الذي وجد لاول مرة ينبئنا بانَّ المعبد المذكور لم يزل في عهد الدولة السادسة والعشرين محفوفًا باكرام عظيم

واننا نعلم ايضًا من مصادر اخرى انَّ كهنة هليوبوليس على عهد السلطة اليونانية قد كان بقي لهم بعض الشهرة في المعارف والحكمة فان هيرودوت قصدهم وافلاطون على ما قيل اقام بينهم ثلاث عشرة سنة ليتخرج على مذاهبهم ولمَّا زار استرابون مصر وجد الهيكل قائمًا مصونًا . وعند ما استولى الاسلام على بلاد مصر كانت خرائب الهيكل تشبه بقلعة من القلاع ولذا سموا ذلك المكان « الحصن »

اما نتيجة العمل في عزبة العرب شمالي المسلة فقد كانت استخراج قطع عديدة من الحجر المحبَّب منحوتة قد أُعدَّت لا ريب لأبنية مدينة القاهرة وعليهِ لم يبقَ فيها بقية لاصحاب العاديات . غير انَّ قطعة منها او بالاحرى مجموع قطع يستحق ان

نوجه اليه نظرة وهذا قد كان في اول امره ناووساً عظيماً من حجر واحد ثم تكسر واذا حكمنا بموجب ما بقي منهُ فربما كان علوه ٣ امتار وطولهُ سبعة وعرضهُ ثلاثة

ولست ترى في محلهِ الاصلي سوى قسم من القاعدة ومن الجدار الغربي. وفي اسفل جداره هذا اثر ضرب ازميل يشير الى انهم حاولوا قطعهُ . وكان الجدار الشمالي ملقياً على الارض قطعتين وهذا هو اهم جزء من الناووس الذي نحن بشأنهِ لان قد حُفر فيهِ صورة ملك جالساً ويده الصولجان وعلى راسهِ تاج مُلك مصر السفلى والعليا . لكنهُ يستحيل تعيين هذا الملك اذ لا كتابة عند الصورة تساعد على ذلك

اما في النقطة الثالثة او كوم الردم شرقي هليوبوليس فانَّ الشغل وغماً عما بُذل فيهِ من الجد والهمَّة لم يأتِ بادئ بدء بنتيجة تذكر . على انَّ النقب والحفر لم ينقطع حتى اوصلهم الى جدار من اللبن مائل قد اماله على ما نرتأي انهيار التراب . ولما خرقت معاول الفعلة ذلك الجدار انتشبت في الرمال فاخرجوا منها كمية عظيمة فاذا هم بغرفة واسعة محاطة بجدران من لبن . ويحق لنا ان اعتبرنا نوعية وهيئة الاشياء الموجودة في هذا المكان القول بانهُ مسطبة قديمة العهد ترتقي الى ايام الدولة الاولى او الثانية

وهو اكتشاف غريب لم يكن ليُرجى حتى مسيو ماسپرو ذاته قد اخذه منهُ العجب . وكل ما وجد في الحفائر من تماثيل صغيرة وآنية خزفية وقطع صوان منحوتة تشبه كل الشبه ما وجدوه في مدافن نقـارة وابيدوس القديمة . فهي لا ريب من زمن واحد وحضارة واحدة . تلك الحضارة التي كانت قد ضربت اطنابها في مصر العليا والتي قد وجدوا من بضعـة سنوات شيئاً من آثارها في سقارة وما من احد كان ليظن انها انتشرت وامتدَّت الى مصر السفلى . هذا وانَّ مسيو جان كاپار في مؤلَّفهِ عن اوائل الصناعة في مصر قد اتى على ذكر ما بقي من آثار ذلك العهد القديم ووصفها وصفاً مدققاً وقد حدَّد لزمن وجودها حداً دون الاربعـة الاف سنة قبل المسيح . ولكن بما انهُ يستحيل القول بزمن معيَّن فقد ارتأى مع المسيو فلندر پتري ان يسميا حضارة نقارة فان كل الدلائل تدل على انَّ نقارة كانت مركزاً لهـا . والحال انَّ مسافة نقارة عن هليوبوليس ليست باقل من ٦٠٠ كيلومتر ومن هذا ترى عظم امتداد وانتشار تلك الحضارة القديمة . وذلك الاكتشاف ذاتهُ يمكننا من الحكم على مدينة هليوبوليس كم

كانت عريقة في القدم اذ انهُ وجد فيها ابنية اقدم من تمثيس عهدًا وهي تعاصر اول مدن انشئت في ارض مصر

واذا ما نشر المسيو شاپارتي صور ما وجده من قطع الصوان المحدّدة والتماثيل الصغيرة يتيسر بل يحار لعلماء العاديّات ان يقابلوها مع ما نشره المسيو كاپار والمسيو پتري مما وجد في مصر العليا . فتكون للمقابلة بينها فائدة لقدم عهدها اذ انها تسبق الاهرام بنحو من الف سنة . وهكذا يسهل على العلماء حلّ مسئلة مبدأ الصناعة المصريّة التي طالما وضعوها موضع الاسرار الغامضة . والى هذه الخمس عشرة سنة الاخيرة لم نكن نعرف من آثار مصر القديمة سوى الاهرام ومدافن الجيزة وابي الهول وتماثيل شفرن . والحال ان تلك هي اعمال قد بلغت اوفى حظ من الكمال وقد انشأها قوم في اوج الحضارة لا في مهدها . امّا ما سبق ذلك العهد من الاعصر الاعدادية فقد كنّا نجهل امرها كل الجهل حتى انهُ قد حق لاحد علماء الآثار المصريّة ان يقول في زمانهِ : « اننا لا نعرف من صناعة المصريين وفنونهم سوى دور الهرم والانحطاط »

فهذا القول قد اصبح اليوم خلاف الحقيقة لان اكتشافات نقادة وابيدوس وهيليوبوليس قد اطلعتنا على آثار اقدم عهدًا من الاهرام ولعلها ترتقي الى الوف من السنين قبل المسيح وتتصل بمهد الصناعة المصريّة ذاته

وليسمح لي حضرة المسيو شاپاراتي ان اختم هذه المقالة بتقديم عواطف شكري لهُ على ما اظهره نحوي من جميل لطفهِ اذ تنازل واطلعني هو بذاتهِ على كل ما وُفق لهذه السنة الى اكتشافهِ في هيليوبوليس